من النجوم الزاهرة

فى سماء السنة العطرة

الإمام الحافظ أبو سليمان الخطابى

د / جمال حسوب بهلول

مدرس الحديث وعلومه فى الكلية

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3] [4] .

أما بعد .....

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة[5] ، وكل ضلالة فى النار[6] . " من يرد اله به خيراً يفقه فى الدين "[7] .

---

(١) سورة آل عمران آية " ١٠٢ " .

(٢) سورة النساء آية " ١ " .

(٣) سورة الأحزاب آية " ٧٠ ، ٧١ " .

(٤) تسمى هذه خطبة الحاجة أخرج بعضها الإمام يسلم فى صحيحه كتاب الجمعة جـ٦ / ١٥٦ من حديث ابن عباس رضى الله عنهما – بشرح النووى – ط دار الريان للتراث ، وأبو داود فى سننه كتاب النكاح باب فى خطبة النكاح جـ٢ / ٥٩١ وسكت عنه – طبعة مكتبة الحنفاء والترمذى فى سننه كتاب النكاح باب ما جاء فى خطبة النكاح جـ٣/٤٠٤ ، من حديث ابن مسعود ، طبعة دار الحديث .

وقال أبو عيسى : حديث عبد الله حديث حسن ، وأخرجه النسائى فى سننه كتاب الجمعة باب كيف الخطبة ٣/١٠٤ – ١٠٥ ، من حديث عبد الله مسعود ، طبعة دار الفكر العربى .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الجمعة باب خطبته ﷺ فى الجمعة جـ٦/١٥٣ – من حديث جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما ، طبعة – بيروت . وأخرجه الدارمى فى المقدمة باب فى كراهية أخذ الرأى جـ١/٨٠ ، من حديث جابر بن عبد الله ، طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة .

(٦) هذه اللفظة انفرد بها النسائى فى سننه كتاب اليدين باب كيف الخطبة جـ٣/١٨٨ ، من حديث جابر بن عبد الله .

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين جـ١/١٦٤ ، من حديث معاوية ، وفى كتاب الجهاد باب قول الله تعالى : { فإن لله خمسه وللرسول } جـ٦/٢١٧ ، من حديث معاوية بن أبى سفيان "فتح البارى طبعة دار الفكر " ، وفى كتاب الأعتصام باب قول النبى ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق وهم أهل العلم جـ١٢/٢٩٣ ، من حديث معاوية بن أبى سفيان " فتح البارى " . وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق جـ١٣١٧ ، من حديث معاوية بن أبى =

اللهم فقهنا فى الدين وعلمنا التأويل يا رب العالمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا وأنا نسألك أن تعلمنا فذكر به وقت الحاجة يا رب العالمين .

فإن السنة النبوية هى الأصل الثانى من أصول الدين ، ومنزلتها من الأصل الأول القرآن الكريم منزلة إيضاح وبيان وهيهات أن يستغنى المبين عن بيانه فالصلة بينهما هى التوافق والتواثق والترابط والتطابق وكما تكفل الله عز وجل بحفظ كتابه يكفل أيضاً سبحانه بحفظ البيان لكتابه القرآن فهيأ سبحانه للسنة أوعيتها ، وأوجد لها حفظتها ونقلتها وضمن لها إمتدادها واستمرارها ن خلال مبلغيها . ولقد كانت السنة وما تزال بحراً يتلاطم أمواجاً ومع كثرة الداخلين فيه أفواجا والسالكين إليه سبلاً فجاجا بقيت أبحاثها كأنها لحدتها وغزارة مادتها بكراً لم تمس فقمة الشرف فى دراستها ، وأوجه الفضل منها تلتمس فأى شرف بعد أن تعايش صاحب الوحى سيدنامحمد ﷺ وأى فضل وراء مدارسة أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته وإشاراته وأخباره واقتفاء أثاره ؟

خليف بكل من أنتسب للحديث أن يفاخر بنسبته وجدير بكل من يدارسه أن يباهى بدارسته فالسنة النبوية لم يشارك القرآن الكريم سواها فى الاحتجاج بها ووجوب العمل بمقتضاها لكونها الأصل الناس من أصول التشريع فهى المصدر الصانى الذى أجمع الإجماع على نحو لفظه ومعناه وإيجاب التعمق فى مدلوله ومبناه وهو الذى ورثه المصطفى ﷺ لأصحابه الأبرار والتابعين الأخيار ، وهو الفائضة بركاته على جميع أقاليم الإسلام .

فالسنة النبوية قد تفجرت من بحارها العلوم الفقهية ، والأحكام الشرعية وتزينت بجواهرها التفاسير القرآنية والشواهد النحوية والدقائق الوعظية . وهى التى يميز الله بها الخبيث من الطيب . وبرغم وبذل به أنف الشاك المتزيب وهى تسلك بصاحبها منهج السلامة وتوصله إلى دار الكرامة وهى التى يرجع إليها الأصول وإن برز فى علمه . والفقيه وإن برز فى ذكائه وفهمه . والنحو وإن برز فى تجويد لفظه . واللغوى وابن اتسع فى حفظه والواعظ المبصر والصوفى والمفسر كلهم إليها راجعون ولرياضتها منتجعون ومن هنا قال أبو عبد الله محمد بن نصر بن فتوح الحميدى الأندلسى .

كتاب الله عز وجل حولى ... وما صحت به الأثار دينى
وما اتفق الجميع عليه بدءاً ... وعوداً فهو من حق يقين
فدع ما صد عن هذا وخذها ... تكن منها على عين اليقين

وقال أبو عبد الله الذهبى :

العلم قال الله قال رسوله ... إن صبح والأجماع فاجهد فيه
وحذار من نصب الخلاف جهاله ... بين النبى وبين رأسى فقيه

= سفيان " شرح النووى " . وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب العلم باب إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين جـ٥/٢٨ ، من حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وأخرجه أحمد فى مسنده ٣/٢٣٤ ، من حديث أبى هريرة ٤/٩٣ ، من حديث معاوية بن أبى سفيان .

وقال غيره :

دين النبى محمد آثار نعم المطية للفتى الأخيار
لا ترغبن عن الحديث وأهله فالرأى ليل والحديث نهار

لذا سخر الله عز وجل للسنة المطهرة رجالاً وقبض لها فرساناً يحفظونها فى الصدور والسطور يذبون عنها كل دخيل ويتقون عنها تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين يميزون الغث من الثمين والصحيح من السقيم وما خلا قرن من القرون من أئمة حفاظ أسهروا ليلهم وأظمأوا نهارهم من أجل خدمة السنة القراء على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

لعل من نافلة القول الحديث عن أهمية السيرة الذاتية وحيث تكون تلك السيرة متعلقة بنجم من نجوم الحديث اللوامع تتضاعف تلك السيرة ، فما أشد الأنبها بسير أولئك الأئمة الأطهار الذين وصلوا فى خدمة الحديث الليل بالنهار والنجم الذى نسعد بالحديث عنه أشرق فى سماء السنة أبنان نهضتها ، وأوان وثبتها أشف وتالق ولمع وسطع فى أهم القرون وطالت به السنون وهو يؤدى الحديث وينقله للغير ويحوله إلى واقع سلوكى يسمو به فى القلوب ويرتفع قدره ويشرف للطالبين بالأخذ والسماع منه ويتطلع القاصون والدانون للرواية عنه فمن هو هذا النجم ؟ ومتى أشرق ، وأين ولد ، وكيف نشأ وتألق ، نحن معه حيثما ارتحل وكيفما غرب وشرق .

إنه الإمام المحدث الحافظ الفقيه شيخ الإسلام رائد شراح صحيح البخارى . وصاحب التصانيف البديعة أبو سليمان الخطابى طيب الله ثراه .

فرأيت أن أقف معه من خلال هذا البحث المتواضع عن دراسة الإمام الخطابى والغرض من دراسته لتنير تلك الدراسة لسير العلماء والعظماء من الناس بهم فى الصبر والجلد وقوة الاحتمال والإخلاص وغير ذلك من المزايا تفيد أفراد المجتمع وتصنع بين أيديهم المثل الكاملة للرجولة الناضجة لصرح علمى أمين متين .

وأنى لأرجو أن يجد القارئ وفيما أكتبه عن هذا الإمام الجليل المزيد من التعرف بالخطابى والإقتداء به فى علمه وأدبه وزهده وورعه وتدريسه وتأليفه حتى صار من العلم بمكان عظيم والاقتداء به والأخذ عنه فرضى الله عنه وأرضاه لأجل هذا أحببت أن أكون مقتديا بالسادة العلماء الأجلاء فى الزود عن سنة خير الأنبياء فاستعنت بالله تعالى أن أكتب فى هذا الموضوع سائلاً المولى عز وجل أن يرزقنى الإخلاص فى القول والعمل وأن يجنبنى الرياء إنه خير مسئول وأفضل مأمول .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصلى اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

د / جمال حسوب بهلول

عصر الخطابى وبيئته

يعتبر القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى العصر الذى ولد فيه الإمام الخطابى وعاش وتوفى (٣١٩ – ٣٨٨هـ) (٩٢٩ – ٩٩٨م) إذ كان مولده فى أواخر عهد الخليفة العباسى المقتدر جعفر بن المعتضد وقد امتازت الدولة الإسلامية فى هذا العصر باتساع رقعتها ، وانتشار نفوذها ، وعظيم سلطانها . إلا أنه يمكننا أن نلاحظ أن التاريخ الإسلامى فى هذا العصر تميز من الناحيتين السياسية والعلمية[١] .

أولاً الحياة السياسية :

نلاحظ أنه بالرغم من زيادة انتشار الإسلام ، وتوسع دولتهم نحو الصين شرقاً ، وإلى الجنوب فرنسا غرباً ، فإن ظاهرة استقلال الأمراء والسلاطين عن مركز الخلافة العباسية ببغداد أخذت تنمو وتنتشر بسببه ازدياد نفوذ الأتراك الذى قلص من سلطة الخليفة وتدخل النساء فى شئون الدولة[٢] وكثرة تولية الوزراء وعزلهم ، كما أدى إلى نشوب دويلات وإمارات (للبويهيين) فى (فارس وأصبهان) و (للحمدانيين) فى (الموصل وديار ربيعة) وغيرهما و (للأمويين) فى (الأندلس) و (للفاطميين) فى المغرب وأفريقية و (للبريديين) فى (الأهواز وواسط) و (للسامانيين) فى (خراسان) و (للإخشيد) و (مصر والشام) و (للقرامطة) فى (اليمامة والبحرين) وسواهم[٣] مما طبع الدولة الإسلامية فى هذا العصر بضعف نفوذ الخلفاء وسلطتهم من جراء الانقسام وازدياد نفوذ الأتراك ، وكثر الدسائس والفتن ، والميل اجتماعياً نحو المتعة واللهو .

ثانياً الحياة العلمية :

وعلى العكس فى الأمر فى الحياة السياسية ، فقد تميزت الحياة العلمية للدولة الإسلامية فى عصر الخطابى بازدهار فكرى عظيم ، عز نظيره وقل مثيله سواء بالنسبة للدولة المعاصرة للمسلمين ، أو بالنسبة للدولة الإسلامية التى بلغ ازدهار العلوم والفنون فيها شأناً لم تبلغه فى تاريخ سابق لهذا العصر أو لاحق عليه – وفرد هذا الازدهار الفكرى والعلمى إلى العناية الكبيرة للخلفاء والأمراء بالعلم والعلماء ورعايتهم للمراكز العلمية والثقافية فى مختلف أنحاء الدولة وجهاتها وكثرة طلاب العلم والمعرفة وانتشارهم فى طول البلاد وعرضها ووفرة العلماء الواردين على مركز الخلافة ببغداد .

---

(١) انظر الموضوع بتوسع عند . الإمام الخطابى ليوسف الكتانى ص٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١١ / ١٨١ .

(٣) تاريخ ابن الأثير ٨ / ٤٢ – ٧٧ وتاريخ الإسلام ٣ / ٢٤٥ – ٢٥١ .

فالقرن الرابع انتشرت فيه المدارس والمعاهد الجديدة التى بقيت إلى أيامنا وكانت نيسابور مهد هذه المعاهد ومن أكبر مراكز العلم فى خراسان[1] .

ولم تكن وظيفة التعليم تدر شيئاً كثيراً لذهاب كثير من العلماء إلى عدم جواز أن يأخذ المعلم أجراً على تعليمه القرآن والحديث ، فأبو العباس الأصم ــ وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم يورق ويأكل من كسب يده[2] .

وحكى أبا بكر الصبغى كان يبيع الصبغ بنفسه ، أو يعلمه بنفسه فى الحانوت على عادة العلماء المتقدمين الذين يتسببون فى المعاش وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين[3] وحكى عن أبى بكر الجوزقى ، محدث نيسابور ، أنه قال : أنفقت فى الحديث مائة ألف درهم وما كسبت به درهما[4] .

ولقد نشأ فى القرن الرابع الهجرى منهج جديد فيما يتعلق بطلب العلم وهو الذى يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله ومن غير أجازة مكتوب تخوله حق الرواية وبهذا حلت دراسة كتب محل الأسفار التى كان طلاب علم الحديث يقون بها للقاء رجاله[5] إلا فى بعض الحالات ، فإن الرحلة فى طلب العلم لم تنقطع نهائياً ، بل كان يقوم بعض العلماء وما يزال ذلك قائماً إلى يومنا هذا رغم قلة الاعتماد على الإسناد ودراسة أحوال الرجال ، معتمدين فى ذلك على المصنفات ، بعد نهاية عصر التدوين فى القرون الثلاثة الأولى .

وكان المحدثون يعتبرون أكبر العلماء شأنا وكانوا يعدون من أعظم رجال الإسلام مكانة ومن أكبر مدثنى القرن الرابع الهجرى أبو الحسن على بن عمر الدارقطنى المتوفى سنة (٣٨٥ هـ) وغيره وكذلك ظهرت فى القرن نفسه كتب جديدة تعالج تصحيفات المحدثين فكتب الإمام حمزة بن الحسن الإصفهانى (٢٨٠ ــ ٣٦٠ هـ) كتابه التنبيه على حدوث التصحيف وكتب[6] أبو أحمد العسكرى (٢٩٣ \ــ ٣٨٢ هـ) كتابه شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف[7] ، وكتابه تصحيفات المحدثين[8] .

---

(١) الحاضرة الإسلامية (١ / ٢٣٦) .

(٢) المنتظم لابن الجوزى : (٦/ ٣٨٦)

(٣) طبقات الشافعية للسبكى : (١٦٨/٢) .

(٤) المصدر نفسه : (٢ / ١٦٩)

(٥) الحضارة الإسلامية : (١ / ٣٥١ ــ ٣٥٤)

(٦) طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٨ هـ بتحقيق : محمد أبعد أطلسى .

(٧) طبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٨٢ هـ بتحقيق : عبد العزيز أحمد .

(٨) طبع بالقاهرة سنة ١٤٠٣ هـ بتحقيق محمد أحمد حميدة .

وكتب الدارقطنى (٣٠٥ ــ ٣٨٥ هـ) كتاب فى التصحيف[١] وكتب الإمام الخطابى رسالة موجزة سماها : إصلاح خطأ المحدثين[٢] وكذلك وضعت الأصول التى يبنى عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها فى القرن الرابع ، وقد رتب ابن أبى حاتم المتوفى سنة (٣٧٧ هـ) ألفاظ الجرح والتعديل وعين الإمام أبو سليمان الخطابى لأول مرة أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهى : الصحيح ، الحسن ، الضعيف .

وحدد الدارقطنى المتوفى سنة (٣٨٥ هـ) معنى التعليق ، ثم جاء الحاكم المتوفى سنة (٤٨٥ هـ) فجعل أصول الحديث علماً مستقلاً ووضع هيكله الذى بقى فى جملته إلى أيامنا : بحيث إن القرون التالية لم تضف فى هذا الباب لم تم فى القرون الرابع الهجرى إلا أشياء ثانوية[٣] .

ولعل من المفيد أن ننصت باهتمام إلى ما قاله الإمام أبو سليمان فى مقدمة كتابه " أعلام الحديث " واصفاً مجتمعه من الناحية العلمية وما بلغه معاصروه من العامة من مستوى ثقافى ، وكيف ينظرون إلى أمثاله من العلماء ، وما ذكروه من الأسباب التى دفعته إلى تأليف كتابه هذا وسائر كتبه الأخرى .

يقول أبو سليمان : ثم فكرت فيما عاد إليه أمر الزمان فى وقتنا هذا من نضوب العلم وظهور الجهل ، وغلبه أهل البدع وانحراف كثير من إنشاء الزمان إلى مذاهبهم ، وإعراضهم عن الكتاب والسنة وتركهم البحث عن معانيها ولطائف علومها ، ورأيتهم حين هجروا هذا العلم ونحو خطا منه ناصبوه وأمعنوا فى الطعن على أهله فكانوا كما قال الله عز وجل ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[٤] ووجدتهم قد تعلقوا بأحاديث من متشابه العلم قد رأوها جامع هذا الكتاب[٥] وصححها من طريق السند والنقل لا يكاد يعرف عوام رواة الحديث وجوهها ومعانيها ، إنما يعرف تأويلها الخواص منهم ، الراسخون فى العلم المتحققون به فهم لا يزالون يعترضون بها عوام أهل الحديث والضعفة منهم فإذا لم يجدوا عندهم علما بها ومعرفة بوجوهها اتخذوا سلماً إلى ما يريدون من ثلب جماعة أهل الحديث والوقيعة بينهم ، ورموهم عند ذلك بالجهل وسوء الفهم ، وزعموا أنهم مقلدون يروون ملا يدرون ، وإذا سئلوا عنه وعن معانيه

---

(١) منه نسخة مصورة فى المكتبة المركزية بالجامعات الإسلامية بالمدينة المنورة .

(٢) طبع فى القاهرة بتحقيق : برهان الدين محمد الداغستانى وأعيد طبعه سنة ١٤٠٥ هـ بتحقيق الدكتور / حاتم الصالح الضامن فى مؤسسة الرسالة .

(٣) الحضارة الإسلامية : (١ / ٣٥٦ ــ ٣٦٠) .

(٤) سورة الأحقاف الآية " ١١ "

(٥) الجامع الصحيح للإمام البخارى .

ينقطعون ويسمونهم من أجل ذلك حمالة الحطب وزوامل الأسفار ، ونحوهما من ذميم الأسماء والألقاب[1] .

فكانت هذه الأمور من أهم الأسباب الرافعة له على تأليف هذا الكتاب ، ويكفى مثلاً واحداً على ذلك ما كان يضمه مجلس (سيف الدين الحمدانى) من كبار العلماء ونبغاء الأدباء أمثال : أبى على الفارسى وابن خالويه ، والشاعر أبى الطيب المتنبى[2] .

كما تميز العصر بازدهار جميع العلوم والفنون ، ونبوغ علماء كبار فى التفسير والحديث والفقه ، والفلسفة ، واللغة وغيرها .

وضعوا كتباً ما تزال إلى اليوم مصادر ومراجع فى مختلف العلوم والفنون أمثال : ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٧٧هـ) صاحب كتاب " الجرح والتعديل " والمحدث الكبير أبى الحسن الدار قطنى (ت ٣٨٥هـ) والحافظ الإمام الخطابى صاحب كتاب " غريب الحديث " و " معالم السنن " و " أعلام السننَ " وسواهم من كبار المفسرين والمحدثين واللغويين الذين زخر بهم عصر الخطابى ، حتى عد أزهى وأعظم العصور العلمية فى الإسلام .

أسرة الخطابى :

يقول الشيخ يوسف الكتانى : أما أسرة الخطابى وبيئته العائلية فلا نكاد نجد فى المصادر والمراجع التى عرفت به ، وأرخت له ذكرا لخصوصية أسرته ، أو شيئا عن والديه على الإطلاق ، أو عن طفولته وبداية نشأته غير أن نبوغه المبكر وتبريزه فى أغلب علوم وفنون عصره ، يوحى بأنه ولد وتربى ونشأ فى بيئة علمية وفرت له تربية صالحة ، وتوجيها كريماً ، جعل منه إمام عصره ونابغة زمانه[3] .

نسبه ونشأته :

هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيى السنة الأديب الرحال أبو سليمان حمد بفتح الحاء وسكون الميم بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابى البستى[4] فقد سئل الخطابى عن اسمه فقال : (إسمى الذى سميت به " حمد "[5] ولكن الناس كتبوه أحمد فتركته عليه ، وولد الخطابى فى شهر

---

(١) انظر مقدمة أعلام الحديث : (٣)

(٢) انظر ابن خلكان ٢/ ٨٤ ــ ٨٥ ، الإمام الخطابى للشيخ يوسف الكنى الحضارة الإسلامية أدم ميتز ١/ ٢٣٠ ، تاريخ الإسلام ٣/ ٢٤٥ ــ ٢٥١ .

(٣) الإمام الخطابى ص ١٢ .

(٤) " بست " بضم الباء وسكون السين بلدة كثيرة الأشجار والأنهار بين هراة وغزنة من بلاد الأفغان .

(٥) قال الحاكم : أبو عبد الله محمد بن البيع : سألت أبا القاسم المظفر بن طاهر بن محمد البستى الفقيه عن اسم أبى سليمان أحمد أو حمد ؟ فإن بعض الناس يقول : أحمد ، قال : سمعته يقول : إسمى الذى سميت به حمد ، ولكن الناس كتبوا أحمد فتركته عليه وقد نعت الذهبى بالوهم من سماه حمد بدون ألف تذكرة الحفاظ ٣ / ٢٠٩ ، والأنساب للسمعانى ٢/ ٢٢٤ ، معجم البلدان ١/ ٤١٤ ، اللباب ١/ ١٥١ .

رجب سنة تسعة عشر وثلاثمائة بمدينة بست (بضم الياء وسكون العين) من بلاد كابل وقد نشأ وتربى وتوفى بمدينة " بست " التى بدأ بها تعليمه شأنه شأن أترابه ، وحفظ القرآن والحديث والتفسير .

انظر ترجمته فى :

١ – طبقات الفقهاء الشافعية للعبادى ص ٩٤ .
٢ – الأنساب للسمعانى ٥ / ١٥٧ .
٣ – الفهرست لابن خير ٢٠١ .
٤ – المنتظم لابن الجوزى ٦ / ٣٩٧ .
٥ – معجم الأدباء لياقوت ١٠ / ٣٧٨ .
٦ – أنباء الرواة للقفطى ١ / ١٢٥ .
٧ – وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٢١٤ .
٨ – سير أعلام النبلاء للذهبى ١١ / ٩ / ٧ / ٩ .
٩ – تذكرة الحفاظ للذهبى ٣ / ١٠١٩ .
١٠ – طبقات الشافعية للسبكى ٣ / ٢٨٣ .
١١ – اللباب لابن الأثير ١ / ٤٥٢ .
١٢ – البداية والنهاية لابن كثير ١١ / ٢٣٧ – ٣٢٤ .
١٣ – الأعلام للزركلى ٢ / ٢٠٤ .
١٤ – كشف الظنون لحاجى خليفة ١ / ١٠٨ .
١٥ – بغية الوعاة للسيوطى ١ / ٥٤٧ .
١٦– شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٣ / ١٢٧ .

على كثير من المحدثين والفقهاء وأهل العلم حتى إذا استوعب ما عند مشائخها ورجالها أمثال محمد بن حيان البغوى ، وأبو جعفر أحمد بن منيع البغدادي والفقيه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إبراهيم البغوى والقاضى أبو سعيد محمد بن على بن أبى صالح البغوى وغيرهم .

ثم رحل إلى البلاد الإسلامية والمراكز الثقافية شرقاً وغرباً من أجل الرواية والسماع والأخذ عن الشيوخ بالحجاز والعراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر وغيرها[1] .

سمع الحديث من أبى سعيد الأعرابى بمكة ، وأبى بكر بن دراسة بالبصرة وإسماعيل بن الصفار ببغداد وأبى العباس بن الأصم بنيسابور وغيرهم[2] ، وأخذ اللغة والأدب عن أبى عمر

(١) معجم الأدباء ... / ٢٦٨ – طبقات الشافعية ٣ / ٢٨٢ – الأنساب ٥ / ١٥٧ – ١٥٩ .
(٢) طبقات الشافعية ٣ / ٢٨٢ – تذكرة الحفاظ ٣ / ٢٠٩ .

الزاهد ، وأبى على إسماعيل بن الصغار ، وأبى جعفر الرزاز[1] ، وأخذ الفقه عن أبى بكر القفال الشاشى ، وأبى على بن أبى هريرة ونظرائهما[2] .

شيوخه :

ونظراً لكثرة من أخذ عنهم الإمام الخطابى وسمع منهم من علماء وشيوخ بلده والأمصار الإسلامية فقد روى عن كثير من المحدثين نذكر منهم :

١ – إمام عصره الشيخ الثقة الحسين بن محمد المروزى القاضى تفقه عليه أو روى عنه ونهل من علمه فكان من أخص تلامذته ، وأوعاهم ، وأفضلهم وأذكاهم .

٢ – ابن الأعرابى : شيخ الحرم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر الإمام الزاهد سمع الحسن بن محمد الزعفرانى ، ومحمد بن عبد الملك الدقيقى وأبا داود السجستانى وعنه أبو بكر المقرى الأصبهانى ، وأبو عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة ، وعبد الله بن يوسف الأصبهانى .

٣ – ابن داسة : الشيخ الثقة محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرزاق أبو بكر بن داسة روى عن أبى داود السجستانى وأبى جعفر محمد بن الحسن الشيرازى وإبراهيم بن فهد الساجى كما روى عنه : أبو سليمان الخطابى ، وأبو بكر المقرى ، وعبد المؤمن القرطبى وغيرهم توفى ابن داسة سنة ٣٤٠هـ[3] .

٤ – أبو على الصفار : إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ، روى عن : الحسن بن عرفة ، وزكريا بن يحيى المروزى ، وعباس بن محمد الدورى وغيرهم وعنه : الدار قطنى ومحمد بن المظفر ومحمد بن أحمد زرقويه وسواهم .

قال عنه الدارقطنى : صام أربعة وثمانين رمضانا وكان متعصبا للسنة ، وقال ياقوت الحموى : علامة بالنحو واللغة ، ومذكور بالثقة والأمانة مات سنة ٣٤١هـ[4] .

٥ – أبو عمر بن السماك : عثمان بن أحمد البغدادى

روى عن : الحسن بن مكرم ، ويحيى بن أبى طالب وأبى قلابة الرقاش وغيرهم وعنه : الدار قطنى وابن شاهين ، وابن المنذر القاضى وآخرون .

قال عنه الخطيب البغدادى : كان ثقة ، وقال ابن كثير : كان ثقة ثبتا توفى سنة ٣٤٤هـ[5] .

٦ – القفال الشاشى : محمد بن على بن إسماعيل القفال الكبير الشاشى إمام التفسير والحديث .

روى عن : ابن خزيمة ، وابن جرير ، ومحمد بن الباغندى وسواهم وعنه أبو عبد الله الحاكم ، وأبو عبد الرحمن السلمى وابن منده وغيرهم .

---

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٤١ .

(٢) معجم الأدباء ٤ / ١٤١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢١٦ (٨٥) النجوم الزاهرة ٣ / ٣١٨ شذرات الذهب ٢ / ٣٧٨ .

(٤) تاريخ بغداد ٦ / ٣٠٢ ، أنباء الرواة ١ / ٩١١ ، بغية الوعاة ١ / ٤٥٤ .

(٥) تاريخ بغداد ١١ / ٣٠٢ – البداية والنهاية ١١ / ٢٢٩ ، شذرات الذهب ٢ / ٢٦٦ .

قال السبكى عنه : كان إماماً فى التفسير إماماً فى – الكلام – إماماً فى الأصول إماماً فى الزهد والورع . وقال أبو عاصم العابدى : أفصح الأصحاب فلما واثبتهم فى دقائق العلوم قدماً ، وأسرعهم بياناً ، وأثبتهم جناناً وأعلاهم إسناداً توفى سنة ٣٦٥هـ[١] هذا وقد اشتهر الإمام الخطابى بكثرة الشيوخ الذين تتلمذ عليهم وأخذ عنهم حتى نقل الذهبى عن أبى طاهر السلفى قوله : فى شيوخ الخطابى كثرة وكذلك من تصانيفه[٢] .

تلاميذه :

شهد للإمام الخطابى شيوخه وأساتذته بالتفوق والتحصيل والإدراك عاد إلى بلده " بست " وتصدر للأقراء والأملاء ، فأقبل الناس عليه يروون عنه ، ويستمعون منه خلق كثير منهم :

الإمام الفقيه شيخ العراق أحمد بن محمد بن أحمد الأسفرايني ، والحاكم أبو عبد الله محمد بن البيع النيسابورى ، وأبو عبيد الهروى ، وعبد الغفار بن محمد الفارسى وأبو القاسم عبد الوهاب بن أبى سهل الخطابى وأبو نصر محمد بن أحمد البلخى الغزنوى وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسى ، وأبو عمرو محمد بن عبد الله الزيخانى وخلف كثير[٣] ، وسنقتصر هنا على ذكر نماذج من تلاميذه على سبيل الاختصار والتمثيل منهم :

١ – أبو عبد الله الحاكم : محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبى الطهمانى النيسابورى الإمام الجليل ، والحافظ الكبير : الحاكم المعروف بـ (ابن البيع) صاحب (المستدرك على الصحيحين) توفى سنة ٤٠٥هـ[٤] .

٢ – الإمام الحافظ وجبل العلم المنيع ، وحبر الأمة الرفيع أحمد بن محمد بن أحمد الاسفراييني كان يحضر مجلسه سبعمائة متفقة ، وكان الناس يقولون عنه ، لو رآه الشافعى لفرح به كما ذكر الخطيب البغدادى توفى سنة ٤١٠ أو ٤٠٦هـ[٥] .

٣ – أبو عبيد الهروى : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشانى صاحب (الغريبين) والذى وصفه ياقوت باللغوى ، مات سنة ٤٠١هـ[٦] .

٤ – أبو ذر الهروى : عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصارى الهروى المالكى المحدث الفقيه كان ثقة ضابطاً ديناً وفاضلاً توفى بمكة سنة ٤٣٤هـ[٧] .

---

(١) طبقات الشافعية ٣ / ٢٠٠ – طبقات العابدى ٩٢ . شذرات الذهب ٣ / ٥١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٨ – (١١) .

(٣) طبقات الشافعية ٢ / ٢١٨ ، سير أعلام النبلاء ١ / ٨ (١١) معجم الأدباء ١٠ / ٢٦٨ .

(٤) تاريخ بغداد ٥ / ٤٧٣ – ميزان الاعتدال ٣ / ٦٠٨ .

(٥) طبقات الشافعية ٤ / ٦١ – طبقات العبادى ١٠٧ – ابن قنفد ص ٢٣٠ .

(٦) معجم الأدباء ٤ / ٢٦٠ .

(٧) تاريخ بغداد ١١ / ١٤١ ، التذكرة ٣ / ١١٠٣ .

سيرتـــه :

قال الإمام السمعانى فى ترجمته للإمام الخطابى أنه كان يتجر فى ملكه الجلال ويكسب قوته من التجارة وينفق على الصلحاء من إخوانه[1] .

لقد كان الإمام الخطابى من أهل الزهد والورع فى الجاه والمال والتقرب مـــن الخلفـــاء والأمراء مستقلا فى رزقه معتمداً على تجارته لسد حاجته والتصنيف والتدريس ليقصر حياته كلها على العلم احتسابا لله تعالى .

عاش الإمام حياته على الزهد والورع والدين كما وصفه الثعالبى[2] ، وقال السمعانى : كان إماماً فاضلاً كبير الشأن وجليل القدر[3] .

ووصفه الإمام الذهبى : بالديانة والأمانة ذاكراً أن كل من وقف علـــى مصـــنف مـــن مصنفاته واطلع على بديع تصرفاته تحقق إمامته وديانته وأمانته فيما يورده[4] .

واعتبره الإمام السبكى إماماً من أئمة السنة صالحاً للامتداد به والإصرار عنـــه[5] فهـــو حافظاً لكتاب الله ، عالم بالقراءات وعالم بما أثر عن الصحابة والتابعين فى التفسير والحديث بمذهب الإمام الشافعى ... عالم بالخلاف بين المذاهب وهو من أئمة الحديث وحفاظه واسع المعرفة بمتـــون الأسانيد يجمع إلى صحة النقل وصرف الرواية دقة التعبير ونصاعة الرأى وجزالة البيـــان يعـــرض مذاهب الأئمة بأدلتها بدقة وأمانة ، لا يتعصب لمذهب ، ولا يندد بغيره حريص على نشر معارف الكتاب والسنة ، وتمكين تعاليمها القوية الصحيحة والرجوع إلى الطريقة الـــتى جـــرى عليهـــا الصحابة والتابعون ، ويعتمد مذهب السلف الصالح فى الصفات والمعتقـــدات ، وهـــو ذو ورع مشهور ، واستهانة بمتع الحياة وزخارفها وترفع عن التماسها ، لا يلقى الدرس إلا على طهارة ، ويلبس ما تيسر له من الثياب ، ويرضى بالقليل من الزاد ، لا يشغله عن العلم شيئ من مطالـــب الدنيا أو شئون الحياة ، وهو رضى النفس سمح الخلق ، عذب الشمائل ، حسن النيـــة ، صـــادق الطوية وقد ظهر آثار ذلك كله فيما خلفه من تآليف متنوعة أثنى عليها العلماء وتلقتـــها الأئمـــة بالقبول .

الخطابى الشاعر :

سار الإمام الخطابى على شاكلة علماء عصره والسابقين فى شتى الفنون وبرز فى علـــوم جليلة كالتفسير والحديث والفقه ، والأصول وغيرها بالإضافة إلى أنه كان أديباً ، شاعراً ، لغويـــاً

---

(١) الأنساب ٥ / ١٥٧ – ١٥٩ .

(٢) يتمية الدهر ٤ / ٣٣٤ .

(٣) الأنساب ٥ / ١٥٧ – ١٥٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٨ (١١) .

(٥) طبقات الشافعية ٣ / ٢٨٢ – ٢٨٣ .

كما وصفه ياقوت الحموى[1] وزاد ابن كثير : أن له معرفة باللغة والمعانى وذكر شيئاً من شعره[2] وقال الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر : كان يشبه فى عصرنا بأبى عبيد القاسم بن سلام فى عصره علما وأدبا وزهداً وورعا وتدريباً وتأليفاً إلا أنه كان يقول شعراً حسناً[3] .

ونقل الإمام السمعانى عن الحاكم قوله : الخطابى الفقيه الأديب البستى[4] ووصف الإمام ابن الجوزى شعر الإمام الخطابى بالجودة قائلاً :

وله معرفة باللغة والمعانى والفقه ، وله أشعار جيدة[5] ، وقد ترك الخطابى شعرا جيداً يدل على صفاء نفسه وزهده وإيثاره السلامة فى علاقته بالناس وبذل النصيحة والخير لهم .

وقد ذكرت مصادر ترجمة الإمام الخطابى أشعاراً جيدة له تتعلق أغلبها بالأخلاق ، والكون ، والحياة ، والمثل العليا ، نذكر منها ما نقله أبو سعيد الخليل بن محمد الخطيب قال : كنت مع أبى سليمان الخطابى فرأى طائراً على شجرة فوقف ساعة يستمتع ثم أنشأ يقول :

يا ليتنى كنت ذاك الطائر الفردا ... من البرية منحازاً ومنفرداً
فى غصن نان دهته الريح تخفضه ... طوراً وترفعه أفنانه صعداً
خلو الهموم سوى حب تلمسه ... فى التراب أو نغمة يروى بها كبدا
ما أن يؤرقه فكر لرزق غد ... وعليه حساب فى الميعاد غدا
طوباك من طائر طوباك ويحك طب ... من كان مثلك فى الدنيا فقد سعدا[6]

وله فى معاملة الناس بالحسنى وحب الخير لهم :

أرض للناس جميعاً ... مثل ما ترضى لنفسك
إنما الناس جميعاً ... كلهم أبناء جنسك
فلهم نفس كنفسك ... ولهم حس كحسك[7]

وروى الثعالبى فى (يتيمة الدهر) شعراً له قال : أنشدنى غير واحد له

وما غربة الإنسان فى شقة النوى ... ولكنها والله فى عدم الشكل
وإنى غريب بين بست وأهلها ... وإن فيها أسرتى وبها أهلى[8]

وله فى التسامح والعفو عن المسيئ :

تسامح ولا تستوفى حقك كله ... وابق فلم يستقص قط كريم

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ٣٦٨ .
(٢) البداية والنهاية ١١ / ٣٤٦ .
(٣) يتيمة الدهر ٣٨٢/٤ .
(٤) الأنساب ٥ / ١٥٧ – ١٥٩ .
(٥) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٦ / ٣٩٧ .
(٦) مجموعة الرسائل / الكماليه ٢ – فى الحديث ص ٤١ .
(٧) طبقات الشافعية ٣ / ٢٨٤ .
(٨) يتيمة الدهر ٤ / ٢٣٢ .

ولا تغل فى شيئ من الأمر واقتصد كلا طرفى قصدك الأمور ذميم[1]

وقال فى مدح الخلوة والعزلة عن الناس

إذا خلوت صفا ذهنى وعارضنى خواطر كطراز البرق فى الظلم
وإن توالى صباح الناعقين على أذنى عرتنى منه لكنه العجم[2]

وله شعر فى تهوين الدنيا وعدم الاهتمام بها

لعمرك ما الحياة وان حرصنا عليها غير ريح مستعارة
وما للريح دائمة هبوب ولكن تارة تجرى وتارة[3]

وله يصف ميله إلى البعد عن الناس وعدم مخالطتهم

قد أولع الناس بالتلاقى والمرء حب إلى هواه
وإنما منهم صديقى من لا يرانى ولا أراه[4]

ومن شعره قوله

أنست بوحدتى ولزمت بيتى فدام الأنس لى ونمى السرور
وأدينى الزمان فما أبالى هجرت فلا أراء ولا أزور
ولست بسائل ما دمت حيا أستار الجيش أم ركب الأمير[5]

ومن شعره فى إذاية الناس بعضهم بعضا فوق أذى الوحوش الضارية

شر السباعى الضوارى دونه وزر والناس شرهم ما دونه وزر
كم معشر مسلموا لم يؤذهم سبع ولا نرى بشرا لم يؤذه بشر[6]

ومنه قوله :

تغنم سكون الحادثات فإنما وإن سكنت عما قليل تحرك
وبادر بأيام السلامة إنها رهان وهل للرهن عند متروك[7]

ومنه قوله فى أن (السلامة فى مداراة الناس)

ما دمت حيا فدار الناس كلهم فإنما أنت فى دار المداراة
من يدر دأرى ومن لم يدر فسوف يرى عما قليل ندما للندامات[8]

---

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٤٢ .
(٢) معجم الأدباء ٤ / ١٤٢ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .
(٥) مقدمة العزلة ص٨ .
(٦) المصدر السابق .
(٧) يتيمة الدهر ٤ / ٢٣٢ .
(٨) المصدر السابق .

وله فى التحذير من الجهال وعدم الركون إليهم : —

تحذر من الجهال جهدك إنهم ... وان لبسوا ثوب المودة أعداء
وإن كان فيهم من يسرك قربه ... فكل لذيذ الطعم أوجله داء[1]

وله فى وصف الزمان

قد جاء طوفان البلاء ولا أرى ... فى الأرض ويحيى للنجاة سفينة
فاصعد إلى وزر السماء فإن يكن ... يعيبك فإنك لنفسك المسكينة[2]

وله فى حق الصديق :

وإنى لأعرف كيف الحقوق ... وكيف يبر الصديق الصديق
ورحب فؤاد الفتى محنة ... عليه إذا كان فى الحال ضيق[3]

وله فى آخر عمره :

وقائل ورائى من حجبتى عجبا ... كم ذا التوارى وأنت الدهر محجوب
فقلت حلت نجوم العمر منذ بدا ... نجم المشيب ودين الله مطلوب[4]
فلذت من وجل بالاستتار عن الأبصار ... إن غريم الموت مرغوب

ومن أواخر شعره :

فل للذى ظل يلحانى ويعزلنى ... لنائل فاته والخير مأمول
لا تطلب السمن إلا عند ذى سمن ... نال الولاية فالمعزول مهزول[5]

ثناء العلماء عليه :

١ — قال الإمام السمعانى فى الأنساب : كان الخطابى حجة صدوقاً رحل إلى العراق والحجاز وجال خراسان وخرج إلى ما وراء النهر وكان يتجر فى ملكه الحلال وينفق على الصلحاء من إخوانه[6] .

٢ — وذكر الإمام السيوطى فى كتابه بغية الوعاء نقلاً عن أبى منصور الثعالبى قائلاً : كان يشبه فى عصرنا بأبى عبيد القاسم بن سلام فى عصره علما ، وأدباً ، وزهداً ، وورعا ، وتدريسا ، وتأليفاً إلا إنه كان يقول شعرا حسنا وكان مفحماً[7] .

---

(١) مقدمة كتاب العزلة للخطابى ص٨ .

(٢) يتيمة الدهر المصدر السابق والإمام الخطابى للدكتور يوسف الكتانى ص ٢٣ — ٢٨ .

(٣) يتيمة الدهر المصدر السابق .

(٤) يتيمة الدهر المصدر السابق .

(٥) الإمام الخطابى ص ٢٨ للدكتور يوسف .

(٦) الأنساب ٥ / ١٥٧ — ١٥٩ .

(٧) بغية الوعاة ١ / ٥٤٧ .

٣ – وقال السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى : كان إماماً فى الفقه والحديث واللغة وذكره الإمام أبو المظفر بن السمعانى وقال : كان من العلم بمكان عظيم وهو إمام من أئمة السنة صالح للأقتداء والأخذ عنه[١] .

٤ – وقال الذهبى فى تذكرة الحفاظ : كان ثقة من أوعية العلم قد أخذ اللغة عن أبى عمر الزاهد ببغداد والفقه عن على بن أبى هريرة والقفال ، وقال : له فهم مليح ، وعلم غزير ، ومعرفة باللغة والمعانى والفقه وله أشعار جيدة[٢] .

٥ – وقال الإمام النووى فى طبقات الشافعية : حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الفقيه الأديب أبو سليمان الخطابى البستى صاحب التصانيف المتداولة[٣] .

٦ – وقال الشيخ شرف الدين البهنسى فى الكافى : أبو سليمان الخطابى من الأئمة الأعلام المجتهدين فى قواعد الأحكام كان رحمه الله فقيهاً محدثاً أصولياً جمع بين الحديث والفقه ومد فى العلم باعاً مديداً وأحكم من مبانيه ركناً شديداً حتى قلد أعناق أهل العلم المنن[٤] .

٧ – وقال ابن العماد : كان أحد أوعية العلم فى زمانه حافظاً ، فقيها مبرزا على أقرانه[٥] .

٨ – ووصفه ابن خلكان فى وفيات الأعيان قائلاً : كان فقيها ، أديبا محدثاً . له التصانيف البديعة[٦] .

٩ – وقال ياقوت الحموى : كان : محدثاً فقيهاً ، أديباً ، شاعرا لغوياً ، وكان من الأئمة الأعيان[٧] .

١٠ – وصفه ابن كثير بقوله : أحد المشاهير الأعيان والفقهاء المجتهدين المكثرين سمع الكثير وصنف التصانيف الحسان . له فهم مليح ، وعليم غزير ، ومعرفة باللغة والمعانى والفقه إلى غير ذلك من الشهادات والأقوال والأوصاف التى أجمعت كلها على المترلة الرفيعة للإمام الخطابى بين أقرانه وأهل زمانه ، علما وورعا وسمتا ، وتواصفا وإدراكاً ، ويكفى تشبيهه بأبى عبيد القاسم ابن سلام لندرك المكانة التى أدركها وبلغها فى نفوس أهل زمانه .

منهج الإمام الخطابى فى علم الحديث :

لقد أشرقت شمس الإمام الخطابى على أهل الحديث وطلابه وانعكس ضوئه عليهم فتألقت أنوار حديثه ، وانكشفت أسرار السنة النبوية أمام بصيرة الإمام الخطابى فكان كلامه على وجازته

---

(١) طبقات الشافعية ٣ / ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠١٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) إصلاح خطأ المحدثين ص ٤٠ .

(٥) شذرات الذهب ٣ / ١٢٧ .

(٦) وفيات الأعيان ٢ / ٢١٤ .

(٧) معجم الأدباء ١٠ / ٣٦٨ .

بياناً شافياً وتوضيحاً وافيا لكل مقصد قصد بحيث راق تصنيفه كل منتقد فعاد عليه بالثناء والحمد وقد غطت مصنفات الخطابى علم الحديث بنوعيه رواية ودراية بل إنك ترى المصنف الواحد يجمع بين الفنين ويقرن بين الصنعتين لفنى الرواية والدراية فها هو كتاب (أعلام السنن) فى شرح أحاديث الجامع الصحيح لأبى عبد الله البخارى .

قد ذلل الفجاج وجذب الأفواج إلى ساحته فكل من جاء بعد البخارى لفضله اعترف ومن فيوضاته اغترف ومعروف فضل البخارى المحدث الراوى لحافظ الفقيه الفاهم الدارس الهاضم والذكى الفطن والمستنبط البارع المصحح والمرجح وقد جاء كتابه جامعاً للكثير من المسائل الفقهية فقد أودع تراجم الأبواب كثيراً مما اهتدى إليه باجتهاده واستنبطه بعقله مما يدل على براعته فى الفقه واستنباط الأحكام الشرعية من الأحاديث .

ولمزيد من المعرفة بمنهج الخطابى فى كتابه (أعلام السنن) يقول فضيلة الدكتور الكتانى يمكننا أن نستشف منهج الإمام الخطابى فى كتابه " أعلام السنن " من أمرين :

١ – ومن مقدمته الرائعة التى بسط فيها الأسباب والدواعى التى دفعته إلى وضع كتابة فى شرح أحاديث " الجامع الصحيح " لأبى عبد الله البخارى .

٢ – من خلال الطريقة التى اتبعها فى شرح صحيح البخارى والأسلوب الذى تناول به الشرح والتبيين مما يقتضى بيانه بتفصيل .

فقد تضمنت مقدمة كتاب " أعلام السنن " بعد حمد الله المنعم المجزل فى المن العظيم على نعمة الخلق ، وإرسال الرسل وكتابه القيم الذى أوضح مناهج الحق ، وشرع الأحكام ، وبيان الحلال والحرام ، واقتص الأخبار لتكون موعظة واعتبار ، وإرسال النبى الكريم سيدنا محمد ﷺ هداية الخلق ، وتعليم الكتاب الذى ينبغى إتباعه وتصديقه وطاعته ، والرضا بأحكامه وتضمنت بسط أسباب وضعه للكتاب ودواعيه نذكر منها :

١ – رغبة إخوانه فى " بلخ " بعد إملائه لكتاب " معالم السنن " أن يشرح لهم " صحيح الإمام البخارى " ويفسر المشكل[1] من أحاديثه ويبين الغامض من معانيها .

٢ – حاجة الناس إلى مثل هذا الشرح .

---

[1] يرى البعض أن المشكل والمختلف بمعنى واحد . فقد سرى بينهما كل من الطحاوى . وابن فورك . وفرق بينهما البعض فمختلف الحديث أن يوجد تعارض أو تضاد أو تناقض بين حديثين أو أكثر . وأما مشكل الحديث فهو أعم من ذلك . فقد يكون سببه وجود هذا التعارض أو كون الحديث مشكلاً فى معناه لمخالفته فى الظاهر للقرآن ، أو لاستحالة معناه ، أو لمخالفته لحقيقة من الحقائق المتعلقة بالأمور الكونية كعلم الفلك والطبيعة .

وعليه فيكون تعريف الحديث المشكل بما يلى لغة : من أشكل الأمر بمعنى التبس .

إصطلاحاً : حديث مقبول أخرج فى الكتب المعتبرة ولكنه عروض بقاطع من عقل أو عل أو حس أو أمر مقرر فى الدين ويمكن تخريجه .

مثل له : بحديث سجود الشمس ، وحديث الذباب ، والحمى ، وتحاج الجنة والنار انظر بلوغ الآمال جـ٣ / ٥٤ – ٥٥ للأستاذ الدكتور / محمد محمود بكار أستاذ ورئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين بأسيوط .

٣ – استصعابه لمثل هذا العمل لجلالة كتاب الجامع وسعة موضوعاته واستيعابه لأحاديث الفقه ، والأحكام ، والسنن ، والآداب ومحاسن الأخلاق .

٤ – نضوب العلم وظهور الجهل فى ذلك الزمان ، وكثرة أهل البدع والانحراف ، وميلهم عن الكتاب والسنة إلى مذاهبهم وأغراضهم وتركهم البحث عن معانى السنة ولطائف معانيها .

٥ – التحامل على أهل الحديث ، وثلبهم ، والوقيعة فيهم مما أدى إلى قلة من يعنى بعلم الحديث ، ويبلغ فيه المكانة الواسبة .

٦ – الاستجابة لطلب إخوانه من باب النصيحة للمسلمين بتفسير المشكل من أحاديث الجامع الصحيح ، وفتق معانيه ليكون تبصرة لأهل الحق وحجة على أهل الباطل وذخيرة لغابر الزمان .

وحتى لا يقع تكرار ما تناوله فى كتاب " معالم السنن " الذى سبق إملائه رغبة لإخوانه أن يكتب لهم شرحاً لصحيح البخارى لحاجة الناس إلى مثل هذا الشرح ، فقد تضمن هذا الشرح منهجاً مغايرا عن منهجه فى المعالم يتضح فيما يلى .

⇦ لم يشرح جميع أحاديث صحيح البخارى كما فعل فى كتابه " معال السنن " وإنما اقتصر على شرح الأحاديث التى لم يتناولها فى كتابه " المعالم " .

⇦ لم يتناول فى شرحه جميع كتب الجامع الصحيح بل على الأغلب منها يكون منهجه فى الاختصار وعدم التكرار .

⇦ اقتصر على بعض الأبواب من كل كتاب من الكتب التى تناولها بالشرح من أحاديث الصحيح .

⇦ إذا تعددت روايات الباب وكان مآلها واحداً اقتصر فيه على شرح حديث واحد ، وكأنه بذلك شرح جميع أحاديث الباب كما فعل مثلاً فى " كتاب الأضاحى " وإلا عمد إلى شرح حديثين أو أكثر من باب حسب ما يتراءى له ، ويشير إلى ذلك بقوله : " ومن كل باب كذا " .

⇦ ربما يقوم بشرح أحاديث الباب كله إذا كانت فى ذلك فائدة .

⇦ إذا بدأ بشرح كتاب من كتب البخارى يذكره فى بداية الشرح ، ويعنون باسمه ، وكثيراً ما لا يفعل ذلك كما فعل مثلاً عندما بدأ بشرح كتاب الأحكام لم يذكر عنوانه ولا اسمه .

طريقته فى الشرح :

أن يأتى بنص الحديث كما هو ثابت عن الرسول ﷺ ثم يبدأ شرح المعانى اللغوية لألفاظ الحديث وكلماته ، خاصة الغريب ، منها فيستعرض معانيها المتعددة ، ويختار منها المعنى المناسب لسياق الحديث ومعناه ، راداً على من سبقه بشرحها أو اختار معنى آخر لا يراه هو وذلك كما فعل فى شرح كلمة " الضحك " فى الحديث " بالرضا " لأنه أقرب إلى المعنى المقصود ، مخالفاً ما ذهب إليه الإمام البخارى فى شرحه " للضحك " " بالرحمة " معقباً عليه ومتمماً[1] .

(١) أعلام الحديث ١٣٦٥/٢ باب الكافر تقبل المسلم ثم يسلم .

أو كما فعل عندما استعرض المعانى المختلفة لكلمة : " الجد " ، وهى : الغنى ، والحظ ، والعظمة ليستخلص منها المعنى الصالح والمناسب للآية أو الحديث[1] .

وكما فعل فى شرحه للآية الكريمة ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[2] ، باستعراضه لما قيل فيها من شروح وأقوال لم يتفق مع أصحابها ، ولم يوافقهم على ما ذهبوا إليه من معنى مؤكداً أنها تفيد التجلى لهم وكشف الحجب ، خلافاً لمن قال : بأن معنى الساق كناية عن الشدة والكرب أو هول النفس[3] .

وهذا هو صنيعه دائماً فى شرحه عندما تعرض مسألة فى ألفاظ القرآن الكريم أو الحديث النبوى وتتشعب فيها الأقوال للوصل إلى معناها ، فإنه يتناول كل الأقوال فيها ويناقشها جميعاً ، وينتهى إلى تغليب ما يراه صواباً منها ، أو تأتى بفهمه الخاص لها : ويرجحه على مفهوم السابقين و كما فعل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[4] ، معقباً بعد بيان شرحه لها ، ورده على المخالفين له فى شرحها قائلاً فى حسم : " هذا باب لا يفهمه إلا أرباب القلوب "[5] ، ولذلك تجده يكثر من الاستدلال بالقرآن للاحتجاج على ما ذهب إليه من لغة أو معنى

براعته اللغوية فى استنباط المعانى البلاغية :

أحياناً يشرح أهم الكلمات اللغوية ويعرفها مكتفياً بذلك فى شرح الحديث ، دون التطرق إلى معانيه لوضوحها من خلال ألفاظ الحديث النبوى وعباراته[6] ، ومما يؤكد إمامة الخطابى فى اللغة ، أنه عندما يبدأ شرح ألفاظ الحديث النبوى يقف عند المعنى أو المعانى اللغوية الظاهرة ، بل يلم بالفروق الدقيقة لألفاظ الحديث ليستخلص منها المعنى المراد من لفظ الحديث .

ومن ثم إلى شرحه شرحاً وافياً دقيقاً ، وذلك كما فعل فى شرحه لكلمة " الأصهار " ذكر أن الأحماء هم الأصهار من قبل الرجال ، والأختان هم الأصهار من قبل المرأة ، ويجمع الفريقين الأصهار[7] .

وكما فعل فى شرحه لألفاظ " القسط ، والكست ، والنبذة " وفى شرح " القتات " بالنمام – ذاكراً أن هناك فرقاً دقيقاً بين " النمام " و" القتات " و" القساس"[8] .

---

(١) فيض القدير ص ٨٨ .
(٢) سورة القلم الآية (٤٢) أعلام الحديث ٣/١٩٣٠ ــ ١٩٣١ .
(٣) أعلام الحديث ٣/١٩٣٠ باب يوم يكشف عن ساق .
(٤) سورة الطور الآية (٣٣) .
(٥) فيض القدير ص ٣١٧ .
(٦) المرجع السابق ص ١٨٦ .
(٧) فيض القدير ص ٣٣٥ .
(٨) فيض القدير ص ٣٦٤ .

وأحياناً ينقل رأى علماء اللغة فى تفسير ألفاظ الحديث وشرحهما ، ويعيب عليهم عدم استعراضهم لمعانيها و وذلك كما فعل فى شرح كلمتى "العجر" و " البجر " و عندما نقل شرح " أبى عبيد " لهما ولم يستصوبه وأتى بالمعنى المراد للفظين و معقباً على ذلك بخبر " الأصمعى " عند ما فسرها بمعنى : " الهموم والأحزان " متتبعاً شرح أبى عبيد ليقيه ألفاظ الحديث وغيره من الشراح ، مصوباً لها ، ورادا عليهم بإيراد الشروح والتفسيرات التى يراها مناسبة لمقصور الحديث النبوى ومعناه و بأنها تعنى : " العيوب الباطنة والأسرار الكامنة "[1] ، أو كما فعل عند شرحه الدقيق لكلمة " اللمم " بأن معناها : التمنى باللسان ورؤية العين[2] ، أو عند شرحه لكلمة " الرجز " بالعذاب ، ليستخلص أن المعنى المقصود منها هو أن الرجز ما يؤدى إلى العذاب ، أو عند شرحه " للنذير العريان " شرحاً دقيقاً مميزاً بقوله : هو الفصيح[3] .

موقفه من شروح العلماء قبله لمعانى الحديث والرد عليهم :

ومن بديع نهجه فى الشرح أنه لا يكتفى باستعراض المعانى اللغوية المتعددة للألفاظ ، واختيار المعنى الملائم لها وفقاً لمفهوم الحديث ومقاصده ، بل يستعرض شروح العلماء قبله ، وفهو مهم وتفسيرهم لمعانى الحديث ، ويرد عليهم ، ويصوب ما يراه خطأ فيها مناقشاً ومعللاً وموضحاً ، ثم يعقب على ذلك بالمعنى الذى يراه مناسباً ومتفقاً مع موضوع الحديث ، وذلك كما فعل فى شرحه لحديث " كل شراب اسكر فهو حرام "[4] ، رادا ومفنداً ما ذهب إليه الشراح ، من أن معنى (الشراب السكر) هو : الجزء الأخير من الشراب الذى فيه الإسكار ، معقباً على ذلك فى حزم بقوله : " إن ذلك مستحيل " أى ما ذهبوا إليه من معنى لأنه ليس من المتعارف أن يكون الجزء فى الشئ أكثر من فعل كله فهذا محال[5] ، وكما رده على الأعمش فى شرحه (لحديث السرقة) وتصويبه لفهم الحديث والشرح المناسب له[6] .

ومن منهجه أنه قد يكتفى بذكر الحديث دون شرح أو تعليق هذا ما نراه من منهجه فى الشرح أيضاً أنه قد يكتفى بذكر الحديث دون شرح أو تعليق أو بيان ، وذلك لوضوحه كما فعل فى حديث (شرب العسل للشفاء)[7] . ومن منهجه أن يذكر حديثين متتابعين .

---

(١) فيض القدير ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .

(٢) فيض القدير ص ٣٢٢ .

(٣) فيض القدير ص ٣٧٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى الأشربة (٧٤) باب الخمر من العسل ، وهو البتع ، وأخرجه مسلم فى الأشربة (٣٦) باب أن كل مسكر خمر ، وأن كل خمر حرام حديث ٦٧ – ٦٨ ، وأخرجه مالك فى الموطأ فى الأشربة باب تحريم الخمر ص ٣٤٤ .

(٥) فيض القدير ص ٣٨١ .

(٦) أخرجه البخارى فى الطب باب الشفاء فى ثلاثة (حديث ٥٦٨٠) .

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب الطب باب الخمر من فيح جهنم (حديث ٥٧٢٤) ، وأخرجه مسلم فى كتاب السلام باب لكل داء دواء واستحباب التداوى .

وقد يذكر حديثين متتابعين مرة واحدة ، ثم يشرحهما الواحد تلو الأخر ، كما فعل فى شرحه لحديثى (الواصلة والمستوصلة)[1] .

أو يعمد إلى ضم حديثين وبشرحهما معاً شرحاً واحداً كما فعل فى شرحه لحديث " لا تسموا الكرم عنياً "[2] ، وقد يجمع حديثين إذا كان سندهما واحداً ويقول بشرحهما كما فعل فى (كتاب اللباس) .

وعند ما يجد حديثاً فى صحيح مسلم أو فى غيره من كتب الحديث لم يخرجه البخارى فى صحيحه ، فإنه يبحث عن سبب ذلك وعلته ويذكره كما فعل فى حديث (النصيحة)[3] ، وقد

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنصمة والمتفلجات للحسن والمغيرات لخلق الله ج ١٤ ص ١٠٣ ط : دار إحياء التراث العربى الحديث فى مسند أحمد بن حنبل ط : مؤسسة الرسالة حديث رقم ٤٣٤٣ ، وهو صحيح على شرط الشيخين .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الألفاظ من الأدب باب كراهية تسمية العنب كرماً ١٥ ص ٥/٤ عن أبى هريرى وفى رواية " فإن الكرم قلب المؤمن " وفى رواية لا تسموا العنب الكرم ، وفى رواية : " لا تقولوا الكرم ولكن قولوا العنب والحبلة " . أما الحبلة فبفتح الحاء وبفتح الباء وإسكانها وهى شجرة العنب ففى هذه الأحاديث كراهية تسمية العنب كرماً بل يقال عنب أو حبلة . قال العلماء : سبب كراهة ذلك أن لفظة الكرم كانت العرب تطلقها على شجرة العنب وعلى الخمر المتخذة من العنب سموها كرماً لكونها متخذة منه ولأنها تحمل على الكرم والسخاء . فكره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره لأنهم إذا سموا اللفظة ربما تذكروا بها الخمر وهيجت نفوسهم إ ليها فوقعوا فيها أو قاربوا ذلك . وقال : إنما يستحق هذا الاسم الرجل المسلم أو قلب المؤمن لأن الكرم مشتق من الكرم بفتح الراء ، وقد قال فقال " إن أكرمكم عند الله اتقاكم " فسمى قلب المؤمن كرماً لما فيه من الإيمان والدى والتقوى والصفات المستحقة لهذا الاسم وكذلك الرجل المسلم .. الخ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة ج ٣٧/٢ ، ٣٨ عن تميم الدارى قال الإمام النووى فى شرحه الحديث النصيحة وهذا الحديث من أفراد مسلم وليس لتميم الدارى فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم شيئ ولا له فى مسلم عنه غير هذا الحديث وقد تقدم فى آخر مقدمة الكتاب بيان الاختلاف فى نسبة تميم ، وأنه دارى أو ديرى وأما شرح هذا الحديث فقال الإمام أبو سليمان الخطابى رحمه الله النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الخط للمنصوح له . قال : ويقال هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس فى كلام العرب كلمة مفرده يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة كما قالوا فى الفلاح ليس فى كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منها . قال : وقيل : النصحية مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطته فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب . قال : وقيل : أنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع . شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط . قال : ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله : الحج عرفة أى عماده ومعظمه عرفة . وأما تفسير النصيحة وأنواعها فقد ذكر الخطابى غيره من العلماء فيها كلاماً نفيساً أنا أضم بعضه إلى بعض مختصراً قالوا : أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الإيمان به ونفى الشرك عنه وترك الإلحاد فى صفاته ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائض والقيام بطاعته واحتساب معصيته والحب فيه والبغض فيه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه وجهاد من كفر به والاعتراف بنعمته وحكرها عليه والإخلاص فى جميع الأمور والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها والتلطف فى جميع الناس أو من أمكن منهم عليها . قال الخطابى رحمه الله : وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد فى نصح نفسه فالله تعالى غنى عن نصح الناصح وأما النصيحة ككتابه سبحانه =

علل عدم إخراج البخارى له ، لكونه مرويا عن تميم الدارى عن طريق سهيل بن أبى صالح وهو ليس على شرحه إلا أن الخطابى يورده مسنداً لكثرة فوائده .

وكما ناقش ورد على الإمام الشافعى فى حديده لمدة قصر الصلاة بأربعة أيام لعلة الخوف ، مستدلا بأن النبى ﷺ أقام بمكة بعد الفتح بقصر سبعة عشر يوماً ، ومستدلا بحديث ابن عباس رضى الله عنهما أن من السنة القصر تسعة عشر يوماً[1] .

وقد يخرج من مناقشة لمعنى الحديث ومخالفته لرأى من سبقوه يتبين الخطأ ورده إلى راوى الحديث وتفرده به ، كما فعل مع من عبر عن الله بالشخص ، من رواية عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الملك فى الحديث الذى رواه " لا شخص أغير من الله "[2] معقباً على ذلك بأن الخطأ من الراوى وتفرده برواية هذا الحديث دون غيره أو لأن ذلك التعبير من قبيل التصحيف الذى قد يقع .

من منهجه استخلاص بعض الأخطاء الواردة فى بعض الأحاديث :

ومن منهجه فى الشرح أن يلجأ إلى استخلاص أن بعض الألفاظ الواردة فى بعض الأحاديث ، ليس من كلام الرسول ﷺ ولا تعتبر من متن الحديث ، وإنما هى صادرة عن الراوى ،

= وتعالى فللإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيهه لا يشبهه شيئ من كلام الخلق ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه فى التلاوة والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين وتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه والشكر فى عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته ، وأما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وطاعته فى أمره ونصرته حياً وميتاً ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه وإعظام حقه وتوقيره وإحياء طريقته وسننه وبث دعوته ونشر شريعته ونفى التهمة عنها واستثاره علومها والتفقه فى معانيها والدعاء إليها والتلطف فى تعلمها وتعليمها وإعظامها وأحلالها والتأدب عند قراءتها والإمساك عن الكلام فيها بغير علم وإجلال أهلها لانتسابهم إليها والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع عن سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك . وأما النصيحة لآئمة المسلمين : فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم ، وتآلف قلوب الناس لطاعتهم . قال الخطابى رحمه الله : ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منه حيف أو سوء عشرة وأن لا يضربوا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح ، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوموا بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وهذا هو المشهور وحكاه أيضا الخطابى ثم قال : وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين وأتى من نصيحتهم قبول ما رووه وتقليدهم فى الأحكام إحسان الظن بهم .... الخ . راجع شرح النووى لصحيح مسلم ج ٢/٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(١) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار باب إقامة المهاجر بمكة بعد قضاء لسكنه (حديث ٣٩٩٣٣) ومسلم فى الحج باب جواز الإقامة بمكة للمهاجر منها بعد فراغه (حديث ٤٤١) .

(٢) أخرجه مسلم فى اللعان ١٠/١٣٢ – ١٣٣ – وأحمد فى مسنده ٤/٢٤٨ – والحاكم فى المستدرك ٤/٣٥٨ .

كما أشار إلى ذلك عند شرحه لحديث المعراج ، حيث ذكر أن بعض ألفاظ الحديث صادرة عن شريك .

وكما فعل عندما أكد ضرورة قراءة الفاتحة فى الصلاة للإمام والمأموم جهراً وسراً موضحاً بأن حديث ترك المأموم قراءة الفاتحة لم يصح إسناده ولم يتصل .

ومن منهجه أن يلجأ إلى شرح الحديث بما يخالف ظاهر معنى ألفاظه بسبب دقته ، وتمسكه وتوخيه للمعنى المقصود والمراد من الحديث كله ، وذلك كما فعل فى شرحه للحديثين الشريفين " بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة "(١) و" من ترك الصلاة كفر "(٢) مؤكداً بأن معناهما هو التخويف من أدائه إليه " .

ومن منهجه استنباط القواعد وتأصيل الأصول :

ومن بديع منهجه ، وكمال نبوغه ، ودقه فهمه انه كثيراً ما يلجأ إلى استنباط القواعد وتأصيل الأصول بعد شرحه للحديث بما سبق إليه ، وذلك كما فعل فى مواضع كثيرة من شرحه كما فعل فى حديث " الرقية والطيرة " مستخلصاً قاعدة أساسية إثر ذكره حديث : " أن أحد الصحابة فى لديغا و وأخذ عليه جعلاً فطيبه له رسول الله ﷺ (٣) ، مستخرجاً منه القاعدة التالية إذا كانت الرقية بالقرآن وأسماء الله الحسنى فهى مباحة " ويعتبر أطول شرح للخطابى لأحاديث صحيح البخارى هو شرحه لحديث " أن النبى ﷺ كان يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة " وقد بلغ ما شرحه الإمام الخطابى من أحاديث الصحيح نحو " ألف ومائتين وثمانية وثلاثين حديثاً(٤) " .

أهم خصائص ومميزات " أعلام السنن " :

لقد اتبع الإمام الخطابى فى كتابه (أعلام السنن) أسلوباً فريداً ومنهجاً بديعاً ، توخى فيه السهولة واليسر واجتناب التعقيد والتطويل والإطناب والاستطراد مما ميز شرحه باستيعاب الأقوال فى المسائل اللغوية والفقهية ومعانى كلمات الحديث ومتنه ، وزينه بالمناقشة الممتازة والحوار المفيد لما يستعرضه من الأقوال والنظريات والفهوم والتركيز على ما يختاره منها ، وما يراه مناسباً للمعنى المقصود من الحديث ، بعد الرد على ما يجده بعيداً عن المعنى من تلك الآراء التعليل لرفضه أو قبوله فإذا لم تعجبه الأداء جميعاً ، ورآها بعيدة عن معنى الحديث ، لجأ إلى شرحه وبيانه الذى

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب السنة باب رد الأرجاء (حديث ٤٦٧٨) عن جابر ، والترمذى فى سننه كتاب الإيمان باب ما جاء فى ترك الصلاة (حديث ٦٢٠) عن جابر .

(٢) أخرجه الترمذى فى الإيمان باب ما جاء فى ترك الصلاة (حديث ٢٦٧٩) عن عبد الله بن بريدة ، وابن ماجة فى كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن ترك الصلاة (حديث ١٠٧٩) عبد الله بن بريدة ٣٤١/١ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب السلام باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار عن أبى سعيد الخدرى ١٨٧/١٤ – ١٨٨ .

(٤) أعلام الحديث ٢٠٠٧/٣ ــ ٢٠١٤ باب من طاف على نسائه فى غسل واحد .

يبتكره يستنبطه من فهمه للحديث ، ودافع عنه بقوة وحزم مستدلاً له بالآية أو الحديث مصرحاً بأنه هو المعنى المناسب للحديث الموافق لقصد الرسول ﷺ وهو يصل إلى هذا بأوجز عبارة وأبلغ أسلوب ، مما جعله أحياناً يكتفى بإيراد الحديث كما هو دون أن يتكلم عنه ، لسهولة ألفاظه ووضوح معناه ، وأحياناً يقتصر على شرح ألفاظه ، وأخرى يكتفى بشرح معنى الحديث فى عبارة مختصرة مركزة ، وكل هذا يعتبر عند الخطابى وسيلة وطريق للوصول على ما توخاه من شرحه للحديث ، من استنباط أصول ، وقواعد ، وأحكام ، ما يغله من اجتهاد فى فقه السنة ، جعل شرحه منفرداً بين جميع شروح الجامع الصحيح على الإطلاق ، كما ميزه عن غيره من الشراح بالريادة فى هذا الميدان[1] .

مؤلفاته :

لقد كان الإمام الخطابى رضى الله عنه كثير الكتابة ، كثير التأليف كثير التصنيف ، كثير التدريس ، وقد خلف تصانيف حسنة بديعة ، وكتبا عديدة مهمة وألف فى فنون من العلم مختلفة ، وترك مؤلفات نعتها الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية[2] – بالتصانيف الحسان . كما وصفها طاش كبرى زاده فى كتابه – مفتاح السعادة[3] – بالتصانيف المشهورة والتآليف العجيبة ، وسماها ابن الأهدل بالتصانيف النافعة الجامعة .

وهو وان كان كتب فى علوم كثيرة كالتفسير والحديث والفقه . مما يجعلنا نصفه فى مقدمة أئمة الحديث . لا فى عصره فحسب بل فى تاريخ الإسلام كله ، بفضل عطائه الكبير وتراثه الجم حول الحديث وكتبه ، ورجاله وروايته وإذا لم يكن الخطابى بلغ مبلغ المكثرين فى التأليف كابن حجر والسيوطى وسواهما ، فإنه كان من المجيدين المبدعين فيما ألف وكتب وخاصة حول علم الحديث وبالأخص حول صحيح البخارى الذى يعتبر من أوثق المؤلفات الحديثية واللغوية فى القرن الرابع الهجرى ثم تبعه بعد ذلك ابن بطال والنووى والكرمانى والعينى والحافظ ابن حجر صاحب كتاب " فتح البارى " . .

كما أن كتاب – معالم السنن – فى شرح سنن أبى داود كان الأول فى صدارة شروح كتاب أبى داود أتى فيه عالم يستطعه غيره وكتاب – غريب الحديث – ذكر فيه ما لم يذكره أبو عبيد وابن قتيبة فى كتابيهما[4] ، وقد تنوعت هذه المؤلفات بين المطبوع والمخطوط وبين الموجود وهى :

---

(١) الإمام الخطابى لفضيلة الأستاذ الدكتور/ يوسف الكتانى ص ٤٥ ما بعدها .

(٢) البداية والنهاية ١١ / ٣٤٧ .

(٣) مفتاح السعادة ٢ / ١٤٦ .

(٤) الإمام الخطابى للدكتور / يوسف الكتانى .

١ – معالم السنن : ولعل أول مؤلفاته ـــ التى عرفت ـــ كتاب " معالم السنن فى شرح وتوضيح كتاب السنن لأبى داود السجستانى " وأشهرها على الإطلاق بين العلماء فكلما ذكر قول للإمام الخطابى انصرف ذهن السامع أو القارئ إلى أنه فى كتاب " معالم السنن " سبب تأليفه ومنهجه فيه . يقول الإمام الخطابى : أما بعد فقد فهمت مساءلتكم إخوانى أكرمكم الله وما طلبتموه من تفسير كتاب السنن لأبى داود سليمان بن الأشعث ، وإيضاح ما يشكل من متون ألفاظه وشرح ما يستغلق من معانيه وبيان وجوه أحكامه والدلالة على مواضع الانتزاع والاستنباط من أحاديثه والكشف عن معانى الفقه المنطوية فى ضمنها وقد رأيت الذى ندبتمونى له وسألتمونيه من ذلك أمراً لا يسعنى تركه كما لا يسعكم جهله ، ولا يجوز لى كتمانه كما لا يجوز لكم إغفاله وإهماله فقد عاد الدين غريباً كما بدأ وعاد هذا الشأن دراسة أعلامه خاوية أطلاله وأصبحت رباعه مهجورة ومسالك طرقه مجهولة .

وقد انتهيت أكرمكم الله إلى ما دعوتهم إليه بجهدى وأتيت من مسألتكم بقدر ما تيسرت له ورجوت أن يكون الفقيه إذا ما نظر إلى ما أثبته فى هذا الكتاب من معانى الحديث ونهجته من طرق الفقه المتشعبة عنه دعاه ذلك إلى طلب الحديث وتتبع علمه وإذا تأمله صاحب الحديث رغبه فى الفقه وتعلمه والله الموفق له وإليه أرغب فى أن يجعل ذلك لوجهه وأن يعصمنى من الزلل فيه برحمته .

واعلموا رحمكم الله أن كتاب السنن لأبى داود كتاب شريف لم يصنف فى علم الدين كتاب مثله وقد رزق القبول من الناس كافة فصار حكماً بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فلكل فيه ورد ومنه شرب وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب ، وكثير من مدن أقطار الأرض . فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل ومسلم بن الحجاج وما نحا نحوهما فى جمع الصحيح على شرطهما فى السبك والانتقاد إلا أن كتاب لأبى داود أحسن رصفاً وأكثر فقهاً وكتاب أبى عيسى أيضاً كتاب حسن والله يغفر لجماعتهم ويحسن على جميل النية فيما سعوا له مثوبتهم برحمته .

ثم اعلموا أن الحديث عند أهله على ثلاثة أقسام : حديث صحيح ، وحديث حسن ، وحديث سقيم . فالصحيح عندهم ما اتصل سنده وعدلت نقلته ، والحسن ما عرف مخرجه واشتهر رجاله ، وعليه مدار أكثر الحديث وهو الذى يقبله أكثر العلماء ويستعمله عامة الفقهاء ، وكتاب أبى داود جامع لهذين النوعين من الحديث . فأما السقيم منه فعلى طبقات شرها الموضوع ثم المقلوب أعنى ما قلب إسناده ثم المجهولة ، وكتاب أبى داود خلا منها برئ من جملة وجوهها فإن وقع فيه شئ من بعض أقسامها لضرب من الحاجة تدعوه إلى ذكره فإنه لا يألو أن يبين أمره ويذكر علته ويخرج من عهدته ، وحكى لنا عن أبى داود أنه قال ما ذكرت فى كتابى حديثاً اجتمع الناس على تركه .

وكان تصنيف علماء الحديث قبل زمان أبي داود الجوامع والمسانيد ونحوهما فتجمع تلك الكتب إلى ما فيها من السنن والأحكام أخبارا وقصصاً ومواعظ وآداباً .

فأما السنن المحضة فلم يقصد واحد منها جمعها واستيفائها ولم يقدر على تلخيصها واختصار مواضعها من أثناء تلك الأحاديث الطويلة ومن أدلة سياقها على حسب ما اتفق لأبي داود ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر محل العجب فضربت فيه أكباد الإبل ودامت إليه الرحل .

أخبرنى أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد صاحب أبي العباس أحمد بن يحيى قال : قال إبراهيم الحربى لما صنف أبي داود هذا الكتاب ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود الحديث .

وحدثنى عبد الله بن محمد المسكى قال حدثنى أبو بكر بن جابر خادم أبي داود قال : كنت معه ببغداد إذ قرع الباب ففتحته فإذا خادم يقول هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن فدخلت إلى أبي داود فأخبرته بمكانه فأذن له فدخل وقعد ثم أقبل عليه أبو داود وقال ما جاء بالأمير فى مثل هذا الوقت فقال خلال ثلاث . فقال وما هى ؟ قال : تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً ليرحل إلى طلاب العلم من أقطار الأرض وتعمر بك فإنها قد خربت وانقطع عنها الناس لما جرى عليها من محنة الزنج ، فقال هذه واحدة هات الثانية . قال : وتروى لأولادى كتاب السنن . فقال نعم هات الثالثة . قال وتفرد لهم مجلساً للرواية فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة . فقال أما هذه فلا سبيل إليها لأن الناس شريفهم ووضيعهم فى العلم سواء .

قال ابن جابر فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون فى كم حيرى ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة .

وسمعت ابن الأعرابي يقول ونحن نسمع منه هذا الكتاب فأشار إلى النسخة وهى بين يديه لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذى فيه كتاب الله ثم هذا الكتاب لم يحتج معهما إلى شئ من العلم بتة .

وقد جمع أبو داود فى كتابه هذا من الحديث فى أصول العلم وأمهات السنن وأحكام الفقه مالا نعلم متقدماً سبقه إليه ولا متأخراً لحقه فيه قد كتبت لكم فيما أمليت من تفسيرها وأوضحته من وجوهها ومعانيها وذكر أقاويل العلماء واختلافهم فيها علماً جماً فكونوا به سعداء نفعنا الله تعالى وإياكم برحمته .

وهو كتاب فى شرح وتفسير – كتاب السنن – لأبي داود سليمان بن الأشعث ، وأوضح فيه الخطابي ما أشكل من متون ألفاظ (كتاب السنن) وشرح ما استغلق من معانيه ، وأبان وجوه أحكامه ، ودل على مواضع الانتزاع والاستنباط من أحاديثه ، وكشف عن معانى الفقه المنطوية فى ضمنها ليستفيد تلاميذه إلى ظاهر الرواية لها باطن العلم والدراية بها ، مختتمها كلامه عن معالم السنن . مخاطباً تلاميذه محققا رغبته كما أكد ذلك فى مقدمة كتابه بقوله : " وقد كتبت لكم فيما

أمليت من تفسيرها أمهات السنن وأحكام الفقه ، وأوضحته من وجوهها ومعانيها ، وذكر أقاويل العلماء واختلافهم فيها علماً جماً ، فكونوا به سعداء ونفعنا الله وإياكم برحمته[1] .

٢ – أعلام السنن فى شرح صحيح البخارى : اقتصر فيه على تفسير المشكل من أحاديثه وسنتكلم عليه بشيء من التفصيل فيما بعد .

٣ – كتاب غريب الحديث : من أشهر مؤلفاته وأيسرها وهو فى غاية الحسن والبلاغة[2] ذكر فيه مالم يذكره أبو عبيد الهروى ولا ابن قتيبة فى كتابيهما ، وهو كتاب ممتع مفيد[3] .

يقول الإمام الخطابى فى مقدمته مبيناً الأسباب التى دفعته إلى تأليفه : " ... ثم إن الحديث لما ذهب أعلامه بانقراض القرون الثلاثة واستأخر به الزمان فتناقلته أيدى العجم وكثرت الرواة وقل منهم الرعاة ، وفشا اللحن ، ومرنت عليه الألسن اللكن رأى أولو البصائر والعقول والذابون عن حريم الرسول أن من الوثيقة فى أمر الدين والنصيحة لجماعة المسلمين أن يبعنوا بجمع الغريب من ألفاظه وكشف المغدف[4] من قناعه وتفسير المشكل من معانيه ، وتقويم الأود من زيغ ناقليه ، وأن يدونوه فى كتب تبقى على الأبد ؛ لتكون لمن بعدهم قدوة وإماماً ، ومن الضلال عصمة وضماناً .

وعن أول من ألف فى غريب الحديث يقول الإمام الخطابى : فكان أول من سبق إليه ودل من بعده عليه : أبو عبيد القاسم بن سلام[5] ، ثم انتهج نهجه ابن قتيبة[6] فتتبع ما أغفله أبو عبيد من ذلك . وبقيت بعدهما صبابة للقول فيها متبرض توليت جمعها وتفسيرها ، وكان ذلك منى بعد أن مضى على زمان وأنا أحسب أنه لم يبق فى هذا الباب لأحد متكلم ، وأن الأول لم يترك للآخر شيئاً ، ثم أنه لما كثر نظرى فى الحديث وطالت مجالستى أهله ووجدت فيما يمر بى ، ويرد على منه ألفاظاً غريبة لا أصل لهما فى الكتابين ، علمت أن خلاف ما كنت أذهب إليه من ذلك مذهباً ، وأن وراءه مطلباً فصرفت إلى جمعها عنايتى .

ويقول عن منهجه فى تأليف الكتاب : ولم أزل أتتبع مظانها (أى الألفاظ الغريبة) والتقط آحادها ، أضم نشزها ، وألفق بينها حتى اجتمع منها ما أحب الله أن يوفق له ، واتسق الكتاب

---

(١) وقد طبع هذا الكتاب مراراً ، طبع فى حلب سنة ١٩٢٠ – ١٩٣٠م وفى القاهرة بتحقيق الأستاذ محمد حامد الفقى مع مختصر سنن أبى داود ، وتهذيب ابن قيم الجوزية سنة ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م فى ثمانية أجزاء كما طبع فى بيروت فى أربعة أجزاء ونشرته المكتبة العلمية سنة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

(٢) يتيمة الدهر : (٤ / ٢٣٢) .

(٣) سير أعلام النبلاء : (٤ / ٢٥٢) .

(٤) غدف له فى العطاء : أكثر ، واغدقت قناعها أرسلته على وجهها : (القاموس) .

(٥) هو : الهروى ، طبع كتابه غريب الحديث سنة ١٣٤٨ هـ بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ، وصر سنة ١٣٩٦ هـ

(٦) أبو محمد بن عبد الله بن مسلم وكتابه غريب الحديث طبعته وزارة المعارف العراقية ضمن سلسلة إحياء التراث الإسلامية .

فصار كنحو من كتاب أبى عبيد أو كتاب صاحبه ، ونحوت نحوهما فى الوضع والترتيب وابتدأت أولاً بتفسير حديث رسول الله ﷺ ، ثم ثنيت بأحاديث الصحابة ، وأردفتها أحاديث التابعين ، وألحقت بها مقطعات من الحديث لم أجد لها فى الرواية سنداً إلا أنها قد أخذت عن المقانع من أهل العلم والأثبات من أصحاب اللغة ، وختمت الكتاب بإصلاح ألفاظ مشاهير الحديث يريوها عوام النقلة ملحونة ، ومحرفة عن جهة قصدها .

ويستطرد قائلاً : ولم أعرض لشئ فسر فى كتابيهما إلا أن يتصل حرف منه بكلام فيذكر فى ضمنه ، أو يقع شئ منه استشهاد أو نحوه ، والأحاديث وجدت فى تفسيرها لمتقدمى السلف أو لمن بعدهم من أهل الاعتبار والنظر أقاويل تخالف بعض مذاهبهما ، وتعدل عن سنن اختيارهما ، اقتضى حق هذا الكتاب ، وشرط ما هو ضامنه من استيفاء هذا الباب أن يكون مشتملاً عليها ، ومحيطاً بها ، ويكفى من العذر فيما أورده منها أن الغرض منه أن يظهر الحق وأن يبين الصواب ، دون أن يكون القصد به الاعتراض على ماض ، أو الاعتداد على باق .

ثم يقول معتذراً : فأما سائر ما تكلمنا عليه مما استدركناه بمبلغ أفهامنا وأخذناه عن أمثالنا ، ف إنا أحقاء بألا نزكيه ، وألا نؤكد الثقة به . وكل من عثر منه على حرف أو معنى يجب تغييره فنحن نناشده الله فى إصلاحه ، وأداء حق النصيحة ، فإن الإنسان ضعيف لا يسلم من الخطأ إلا أن يعصمه الله بتوفيقه .

ثم استعرض الإمام الخطابى أسماء من ألف فى هذا الفن بعد ابن قتيبة وأبى عبيد ومؤلفاتهم وعقب قائلاً : ليس لواحد من هذه الكتب التى ذكرناها أن يكون شئ منها على منهاج كتاب أبى عبيد فى بيان اللفظ ، وصحة المعنى ، وجودة الاستنباط وكثرة الفقه ، ولا أن يكون من شرح كتاب ابن قتيبة فى إشباع التفسير وإيراد الحجة وذكر النظائر إنما هى أو عامتها إذا انقسمت وقعت بين مقصر ، وبين مطيل ، وفى بعض هذه الكتب خلل من جهة التفسير ، وفى بعضها أحاديث منكرة لا تدخل فى شرط ما أنشئت له هذه الكتب ، وفى الكتابين (كتاب أبى عبيد وابن قتيبة) غنى ومندوحة .

ثم قال : وأما كتابنا هذا فقد كان خرج لى بعضه وأنا إذا ذاك ببخارى فى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة[1] ألفه الإمام الخطابى وجعله تتمة لكتابى أبى عبيد القاسم ابن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٢٦ هـ) فى (غريب الحديث) عمد فيه إلى جمع وتفسير الأحاديث التى فاتتهما ، متبعاً نهجهما ، مبتدئاً بأحاديث الرسول ﷺ وآثار الصحابة والتابعين ، ملحقاً بها مقطعات من الحديث لم يجد لها سنداً من الرواية ، إلا أنها أخذت عن

---

(١) طبع مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، كتاب الإمام الخطابى غريب الحديث ، بتحقيق : عبد الكريم العزباوى سنة ١٤٠٢ هـ وهو الكتاب السابع عشر فى سلسلة من التراث الإسلامى .

الأثبات والمقانع من أهل العلم مختتماً كتابه بإصلاح ألفاظ من الحديث يرويها عوام النقلة ملحونة محرفة[1] .

٤ – كتاب العزلة : وهو كتاب يحتوى على مجموعة من الأحاديث رواها المؤلف بإسناده الخاص إسناداً كاملاً غير معلق ولا محذوف ، وذلك فى مادة العزلة والفتن وأسباب تسهيل العزلة ، وبين أن الناس فى العزلة فريقان :

أحدهما : يميل إلى الخالق ويمل من الخلق ومن ثم فهو يؤثر ساحة الرب عن مخالطة العبد ويجد فى العزلة كل أمر محمود

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترخى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

وثانيهما : يرى أن المرء كثير بإخوانه والإنسان مدنى بطبعه لا يستطيع أن يحيى وحده ومن ثم يرى أن يد الله مع الجماعة ويردد ويقول :

تأبى الرماح إذا إجتمعن تكسرا ... فإذا افترقن تكسرت آحادا

والحق كما فى الحديث " إن المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر أذاهم خير من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم[2] .

ومع هذا قد يتعين على المرء الرحيل عن أماكن اللهو وعزله أهلها لئلا يكون مشاركاً لهم وقد قال الله تعالى "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار" ولله در القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ولقد كشف الإمام الخطابى اللثام عن العزلة وبين أراء كلا الفريقين وناقشهما ثم بين أن لكل منهما فوائد تدعوا إليها وغوائل تنصر منها وهذا ما نراه فى كتابه العزلة وما حواه من أسباب تسهيل العزلة وخفة الظهر وقلة العيال والأهل ، وترك ما لا يعنى ورفض الاشتغال بما لا يجدى ، والتحذير من قرناء السوء وحسن ارتياد الجليس والصاحب واختلاف طبقات الناس ، وفساد الزمان وأهله وترك الاعتداد بعوام الناس وقلة الإكثار بهم ، وفساد الخاصة وما جاء فى علماء السوء وذكر آفاتهم ، وآفات القراء وتفسير الغوغاء وفساد الأئمة وما جاء فى الإقلال من

---

(١) وقد قام مركز البحث العلمى بمكة المكرمة فى جامعة أم القرى بطبع هذا الكتاب فى ثلاثة مجلدات وبتحقيق الأستاذ / عبد الكريم الغرباوى فى دار الفكر بدمشق سنة ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م وانظر مقدمة كتاب غريب الحديث للخطابى ص ٤٦ ، ٥٢ تحقيق عبد الكريم الغرباوى .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأيمان باب من كره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار من الأيمان (حديث٢١) وفى كتاب الإيمان باب الحب فى الله (حديث ٦٠٤١) ، وأخرجه مسلم فى الأيمان باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الأيمان .

صحبة السلاطين ولزوم القصر فى حالتى العزلة والخلطة ... الخ ما اشتمل عليه كتاب العزلة من أبواب[1] .

٥ – كتاب إصلاح غلط المحدثين : هكذا اسمه فى أغلب المصادر غير أن الصفدى فى الوافى سماه " إصلاح الغلط " كما سماه الزبيدى فى تاج العروس " إصلاح الألفاظ الحديثية التى يرويها أكثر الناس ملحونة ومحرفة " وكتاب " إصلاح غلط المحدثين " من كتب التصحيح اللغوى لما يلحق فيه رواة الحديث ، وقد أورد المؤلف فيه مائة وثلاثة وأربعين حديثاً فيها ألفاظ يخطئ رواة الحديث فى ضبطها أو فى معناها وأشار إلى صحة ضبطها ومعناها[2] .

أو كما عبر عن ذلك الإمام الخطابى بنفسه قائلاً : هذه ألفاظ من الحديث يرويها أكثر الرواة والمحدثين ملحونة ومحرفة وأصلحناها لهم وأخبرنا بصوابها ، وفيها حروف تحتمل وجوها اخترنا فيها أبينها وأصحها مستشهدا لذلك بالقرآن الكريم والأشعار والأرجاز[3] .

٦ – كتاب شأن الدعاء : وقد ورد اسمه عند ياقوت الحموى وغيره متعددا وهو واحد إذ سماه بعضهم : تفسير أسامى الرب – عز وجل – وبعضهم : شرح دعوات ابن خزيمة والبعض الآخر : شرح الأسماء الحسنى أو شرح أسماء الله الحسنى[4] .

وكتاب " شأن الدعاء " كما سماه الخطابى نفسه يحوى تفسير الأسماء الحسنى ، وشرح الدعوات المأثورة التى جمعها ابن خزيمة ، تناول فيه المؤلف الدعاء ومعناه ، وحقيقته وفائدته ومحله فى الدين ، وموضوعه من الشدة ، وحكمه فى باب الاعتقاد وما يلتحق به من علومه وأحكامه وأثره فى دفع البلاء ورد القضاء مظهراً الفرق بين مذهب من يرى : " أن الدعاء لا ينفع فيما جرى به القضاء " وبين مذهب من يرى " أن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم يـنزل " مغلبا جانب الداعين على التاركين .

---

(١) انظر كتاب العزلة وقد أخرجته دار الطباعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٥٢هـ مقدمة محقق كتاب غريب الحديث ص ٢٠ كما قام بتحقيقه الدكتور عبد الغفار سليمان البندارى ونشرته دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م . كما قام بتحقيقه عادل عبد الموجود بكلية الشريعة جامعة الأزهر وراجعه محمود الزنارى ونشرته مكتبة الزهراء بالقاهرة سنة ١٩٨٧م .

(٢) مقدمة محقق الكتاب للدكتور / حاتم صالح ص ١٠ .

(٣) انظر مقدمة الخطابى لكتاب " إصلاح غلط المحدثين " ص١٩ وقد طبع الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٣٦م وقام بتحقيقه ودراسته الدكتور حاتم صالح الضامن الأستاذ بكلية الآداب – جامعة بغداد ونشرته مؤسسة الرسالة فى سلسلة كتب التصحيح اللغوى سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م . كما نشر فى (مجموعة الرسائل الكمالية فى الحديث) نشر مكتبة المعارف : الطائف : وانظر الخطابى للدكتور الكتانى ص ٣٢ .

(٤) انظر معجم الأدباء ٤ / ٢٥٢ ، ١٠ / ٢٦٩ وطبقات الحفاظ ٣ / ١٠١٩ وطبقات الشافعية ٣ / ٢٨٣ وكشف الظنون ص ١٠٣٢ .

كما شرح الإمام الخطابى فى الكتاب أسماء الله الحسنى لغة واشتقاقاً وفقها كما شرح الأدعية المأثورة عن الرسول ﷺ والتى جمعها ابن خزيمة وأضاف إليها لواحق الدعاء مما لم يذكره ابن خزيمة[1] وقد بلغت خمسة وثلاثين حديثاً ، وألحقها بها وشرحها شرحاً وافياً مستفيضاً[2] .

٧ – الغنية عن الكلام وأهله : وقد ذكره ياقوت الحموى هكذا " والغنية عن الكلام "[3] وكذا الحافظ الذهبى[4] .

وأما رسالة الإمام الخطابى ، الغنية عن الكلام وأهله ، فهى غنية عن كثير من المؤلفات فى موضوعها ، يقول فى مؤلفها فى المقدمة : " ... عصمنا الله تعالى وإياك من الأهواء المضلة ، والآراء المغوية والفتن المحيرة ورزقنا وإياك الثبات على السنة ، والتمسك بها ولزوم الطريقة المستقيمة التى درج عليها السلف ، وانتهجها بعدهم صالح الخلف وجنبنا وإياك مداحض البدع ، وأعاذنا وإياك من حيرة الجهل ، وتعاطى الباطل ، والقول بما ليس لنا به علم ، والدخول فيما لا يعنينا والتكلف لما قد كفينا الخوض فيه ، ونهينا عنه ، ونفعنا وإياك بما علمنا ، وجعله سبباً لنجاتنا ، ولا جعله وبالاً علينا برحمته .

وقفت على مقالتك ، وما وصفته من أمر ناحيتك ، وظهور ما ظهر بها من مقالات أهل الكلام ، وخوض الخائضين فيها ، وميل بعض منتحلى السنة إليها واغترارهم بها ، واعتذارهم فى ذلك بأن الكلام وقاية السنة ، وجنة لها يذب به عنها " .

ويقول : " اعلم ــ يا أخى ــ أن هذه الفتنة قد عمت وشملت ، ولا يكاد يسلم من وهج غبارها إلا من عصمه الله " .

ويقول : " ثم إنى تدبرت هذا الشأن فوجدت عظيم السبب أن الشيطان صار بلطيف حيلته سول لكل من أحس من نفسه بفضل ذكاء وذهن يوهمه أنه إن رضى فى علمه ومذهبه بظاهر السنة ، واقتصر على واضح بيان فيها كان أسوة العامة ، فجرهم بذلك إلى التنطع فى النظر .

ولما رأوا كتاب الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه ، ويشهد عليهم بباطل اعتقدوه ، ضربوا بعض آياته ببعض ، فتأولوها على ما سنح لهم فى عقولهم ، ونصبوا العداوة لأخبار رسول الله ﷺ وأساؤوا فى نقلتها القالة ، واعلم أن الأئمة الماضين والسلف المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام عجزاً عنه ، وكانت فى زمانهم هذه الشبه والآراء ، وإنما تركوها لما تخوفوه من فتنتها ، وحذروه من سوء مغبتها ، ورأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته ، وتوقيف السنة وبيانها ، غنى ومندوحة " .

---

(١) وقد قام بتحقيقه الأستاذ / أحمد يوسف الدقاق ونشرته دار المأمون للتراث سنة ١٤٠٤هـ – ١٩٤٨م انظر مقدمة الخطابى فى شأن الدعاء ص ١٢ وما بعدها .

(٢) راجع مقدمة المحقق ص٧ وما بعدها .

(٣) معجم الأدباء ٤ / ٢٥٣ .

(٤) تذكرة الحفاظ ٣ / ٢٠٩ .

ويقول : " إنا لا ننكر أدلة العقول والتوصل بها إلى المعارف ، ولكن لا نذهب فى استعمالها إلى الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر ، وانقلابها فيها على حدوث العلم ، وإثبات الصانع[1] .

٨ – كتاب الشجاج : هكذا أورد اسمه ياقوت فى معجمه[2] وذكره غيره بالحاء " كتاب الشحاح " وهو مازال مخطوطا .

٩ – كتاب العروس : ذكره ياقوت الحموى فى أثناء ترجمته الأولى للخطابى[3] كما أورده الدكتور حاتم صالح الضامن محقق كتاب " إصلاح غلط المحدثين " مقدمته فى أثناء التعريف بالإمام الخطابى[4] ذاكراً أنه لم يقف عليه وذكره صاحب (مقدمة مجموعة الرسائل الكمالية فى التعريف بالخطابى)[5] .

١٠ – كتاب الجهاد : ذكره محقق كتاب (غريب الحديث فى مقدمته دون أن يذكر لذلك مصدراً وأنه مازال مخطوطاً كما أورده الدكتور حاتم صالح الضامن محقق كتاب (إصلاح غلط المحدثين) ضمن آثاره ، مكتفياً بكونه مخطوطاً دون عزوه لأى مصدر أو مرجع .

١١ – بيان إعجاز القرآن : طبع بدار المعارف بمصر بتحقيق الأستاذين محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام ، وذلك ضمن ثلاث رسائل منشورة سنة ١٩٥٥م وقد طبع أكثر من مرة[6] .

١٢ – علم الحديث : ذكره بروكلمان[7] وفؤاد سركين[8] فى كتابيهما .

١٣ – الرسائل الناصحة : ذكره فى مقدمة مجموعة الرسائل الكمالية

١٤ – شعار الدين فى أصول الدين : ذكر أيضاً فى مقدمة مجموعة الرسائل الكمالية

---

(١) انظر كتاب ابن تيمية " بيان تدليس الجهمية " ١ / ٢٥١ ــ ٢٥٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٠ / ١٩ .

(٣) معجم الأدباء ٤ / ٢٥٣ .

(٤) إصلاح غلط المحدثين ص ٨ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٧) صاحب كتاب تاريخ الأدب العربى .

(٨) صاحب كتاب تاريخ التراث العربى .

١٥ – كتاب علم الحديث : وهو مخطوط ذكره محقق كتاب (غريب الحديث) ضمن كتب الخطابى وآثاره[١] وكذا فى مقدمة تحقيق كتاب (إصلاح غلط المحدثين)[٢] .

١٦ – كتاب الاعتصام : ذكره الأستاذ أحمد جمال العمرى فى مقال له بمنبر الإسلام فى أثناء الحديث عن أثار الخطابى ومؤلفاته مشيراً إلى أنه توجد نسخة مخطوطة منه بالأسكوريال[٣] .

١٧ – كتاب معالم التنزيل : جاء ذكره فى المصدر السابق أعلاه دون أن يشير إلى مكان وجوده[٤] .

١٨ – كتاب دلائل النبوة : ذكر الإمام الخطابى فى أثناء شرح صحيح البخارى فى كتابه " أعلام السنن " قائلاً : والخبر مشهور ذكرناه أملياه فى دلائل النبوة[٥] .

وفاة الإمام الخطابى :

توفى الإمام الخطابى أبو سليمان ببست مسقط رأسه فى سادس ربيع الآخر وقيل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة من الهجرة[٦] .

وفى إرشاد الأديب لياقوت توفى الإمام أبو سليمان الخطابى ببست فى رباط على شاطئ هند منذ يوم السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وثلاثمائة ورثاه صديقه وتلميذه أبو منصور الثعالبى فقال :

انظروا كيف تخمد الأنوار ... انظروا كيف تسقط الأقمار

انظر هكذا تزول الرواسى ... هكذا فى الثرى تفيض البحار

ورثاه أبو بكر عبد الله بن إبراهيم الحنبلى قال :

وقد كان حمدا كاسمه حمد الورى ... شمائل فيها للثناء ممادح

خلائق ما فيها معاب لعائب ... إذا ذكرت يوما فمن مدائح

---

(١) غريب الحديث ص ٢٠ كما ذكره بروكلمان وسركين فى كتابيهما .

(٢) انظر مقدمة المحقق ص ٨ .

(٣) الخطابى ومفهومه لأعجاز القرآن الكريم منبر الإسلام ص ١٨٧ ١٣٨٥هـ – ١٩٧٥م .

(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٥) أعلام السنن للخطابى ص ٤٥٩ وانظر كتاب الدكتور الكتانى ص٣٠ وما بعدها .

(٦) أنباء الرواة ١/ ١٢٥ ، يتيمة الدهر ٤ / ٣٣٤ ، معجم الأدباء ٣ / ٢٥١ بغية الموعاة : ٢٣٩ تذكرة الحفاظ : ١٠١٨ طبقات السبكى ٢ / ٢١٨ .

تغمـــده الله الكـــريم يعفـــوه ورحمتـــه والله عـــاف وصـــافح

ولا زال ريحان الآلـــه وروجـــه ترى روحه ما نحن فى الأيك صادح

وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاة الخطابى :

فقال ابن خلكان : كانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ٣٨٨هـ بمدينة بست وقـال الذهبى توفى فى سنة ٣٨٨هـ .

وقال صاحب معجم الأدباء مولده فى رجب سنة ٣١٩هـ وتوفى فى بلده بست سـنة ٣٨٨هـ وقيل سنة ٣٨٦هـ والأول أصح[١](*) .

" اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا بـه جنتك ومن اليقينَ ما تهون به علينا مصائب الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا وأجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصـيبتنا فى ديننـا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا[٢] .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى صحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د / جمال حسوب بهلول

---

(١) معجم الأدباء ٦ / ٢٦٩ ط دار الفكر .

(*) غد غدت الشعر ودغددته

(٢) المستدرك للحاكم ١ / ٥٢٨ وقد صح الحديث ووافقه عليه الذهبى وقد أخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات بنحوه ٥ / ٤٩ .